ولد يتيماً وعاش كريماً ومات عظيماً

محمد بن عبد الله .. شمس الهداية التي سطعت على الكون

في يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الاول من عام الفيل سنة 571 خمس مئة واحدى وسبعين للميلاد ، حدث في الارض امر عظيم امر جلل ، رُجمت فيه الشياطين وحُرست فيه السماء ، قيل انه سقطت أربع عشرة شرفة من إيواني كسرا ، وانطفأت نار المجوس ، يقول « حسان ابن ثابت » كنت صبيا في المدينة وتسمى قديما يثرب ، يقول كنت ألعب مع الصبيان لكنني اعقل، يقول في هذا اليوم نادى يهودي على أطم من الاطام ،

يامعشر يهود يامعشر يهود يقول ، فاجتمع اليهود حوله قالوا ما الخبر ، قال ظهر اليوم نجم احمد ظهر اليوم نجم احمد ، نعم سيحصل الأن امر غريب أعظم ولادة في تاريخ البشرية إنه ميلاد من، إنه يوم ميلاد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، هنا آذن الله أن تَرحَم البشرية به ، أعظم ميلاد ميلاده ، وأسهل ولادة كانت ولادته ، لما وُلد محمد صلى الله عليه وسلم ، في ذلك اليوم ، تقول امه آمنة ، لقد أضاء نور إلى السماء رأيت في ذلك النور قصور الشام ، كان دولته وامته ستمتد إلى الشام رأتها امه في ذلك اليوم ،اي لحظة تلك التي تمر فيها البشرية ، اي سعادة أرسلها الله للكون بولادة احمد عليه الصلاة والسلام .

اي نور سطع في كون ذلك الزمان بولادة محمد صلى الله عليه وسلم ، الله اكبر الله اكبر يوم وُلد محمد ، ذلك اليوم هو اليوم السعيد ، سمع بالخبر بعد ولادته من ، وهو يولد برعاية الرب عز وجل وبعناية الله جل وعلا ، وبصنعه الله على عينه ، وُلد محفوظا وُلد معصوما وُلد محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، سمع بالخبر جده عبد المطلب ، فاسرع وهو يسمع صوت الطفل الذي وُلد للتوا ، النور الذي خرج للبشرية ، ، الذي مات أبوه قبل أن يولد ، فإذا بالطفل يُعطى لجده عبد المطلب فيأخذه ويشمه شمة ، ويقبله ثم يسرع به إلى البيت يطوف به ، يطوف بمن ،

يطوف بالطاهر المطهر ، يطوف بالمصطفى عليه صلوات الله وسلامه ، الذي تصلي عليه الملائكة في السماء ، الذي يصلي عليه الرب عزّ وجل ، فإذا بعبد المطلب يحمل هذا الطفل يطوف به حول البيت ويُدخله باخل البيت فرحا مسرورا سعيدا مستبشرا بهذا الطفل الذي ولد ، ثم رجع به مرة اخرى يدفعه إلى امه آمنة التي فرحت فرحا عظيما بميلاد ذلك الطفل الرضيع ، إذا به يدفعه إلى امه آمنة ، وهو يقول لها سميته محمدا سميته محمدا ، فيالسعادة البشرية في ذلك اليوم.

بدأ البحث عمن يُرضع محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان في تلك الفترة نسوة من « بني سعد بني بكر» جئن إلى مكة يبحثن عمن يُرضعنه ، وكان في الجمع إمرأة إسمها « حليمة السعدية » وكانت قد ركبت آتانا لها حمار ، وكانت السنة ، سنة قحط وجدب ، سنة لم تمر عليهم مثلها ، حتى أن حليمة وزوجها « الحارث إبن عبد العُزى » كان معها ولهما طفل صغير للتو

أرسله ربه خاتماً للنبيين ورحمة للعالمين

مولود ، تقول حليمة لم يكن في ثدي ما يشبع طفلي ، كيف تبحث عمن ترضعه ، تقول حتى أن طفلي كان يبكي الليل كله فلم تكن ننام الليل من شدة بكائه من الجوع هذا طفلها ، فكيف تبحث عمن ترضعه ،

تقول حتى وصلنا إلى مكة تقول فما منا من إمراة إلا وعُرض عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترضعه فرفضن جميعا ، لم ، لما علمن أنه يتيم ، وماذا نصنع بطفل يتيم ، ليس له أب وماذا يصنع جده وماذا تنفع امه تقول، تركناه جميعنا وبحثنا عمن نرضع ، فكل واحدة من صاحباتي وجدت من ترضعه وذهبت به ، وبقيت انا لم اجد احدا ، فقد كانت هزيلة ضعيفة حليمة تقول ، فقلت لزوجي والله إني أكره أن أرجع إلى صاحباتي بغير طفل ارضعه ، والله لأرجعن إلى اليتيم فآخذه فقال زوجي الحارث ، إفعلي فلعل الله أن يجعل فيه بركة ، تقول فاخذت محمدا وإني لكارهة ، لكني لم أجد غيره تقول ، فأخذته صلى الله عليه وآله وسلم فرجعت إلى رحلي إلتحقت بالقافلة بالصُحبة ، لأرجع الى بلدي تقول ،

فما أن وضعته في حجري إلا واقبل لدي فشرب حتى روي ، تقول فالقمته لمن ، لأخيه الطفل الجائع تقول ، فشرب حتى روي أخوه تقول ، فناما ولم يكن إبني قد نام منذ أيام ، تقول فلما أصبحنا قال زوجي أن النسمة التي أخذتيها فيها بركة ، فقالت حليمة إني لأرجوا الله ذلك ، تقول حتى الشاة التي كانت معنا ليس فيها قطرة من لبن تقول ، قد إمتلأ ضرعها ، ضرع شاتها تقول ، حتى الأتان الحمار الذي أركبه تقول ، أسرع حتى قال النسوة لحليمة أربعي علينا يا حليمة ، أين الحمار الذي جئت به ، وين الحمار الذي جئت به إلى مكة قالت إنه هو فقالت النسوة ، والله إن لهذا الحمار شئنا ، القضية ليست في الحمار ولا الشاة ولا اللبن ، إنه افضل من خلق الله جل وعلا .

إنه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ما حل مكانا إلا وبورك فيه ، تقول فسرنا أياما حتى وصلنا إلى بلادنا بلاد سعد بني بكر، تقول فلما وصلنا بلادنا وكانت سنة جدباء شهباء قد القحط أكل الاخضر كله ولم يُبقي لنا لبنا ولا ضرعا ولا طعاما ، تقول فما إن وصل محمد صلى الله عليه وسلم حتى إمتلئت شياهنا لبنا ، فصارت شباعا وكنا نفرح بها كل يوم وترجع قد إمتلئت فتحلب ونشرب ، وارضع ابنائي ولا ينقصنا شيء ، أما جيراني تقول فكانت شياههم جياع حتى انهم ينظرون إلي فيقول بعضهم لبعض ، سرحوا غنمكم مع غنم بنت « أبي ذئيب» ي

فصدون حليمة ، تقول حليمة فإنهم ليسرحون الغنم مع غنمي فترجع غنمي شباعا واغنامهم جياعا ، هذا اللبن ليس لحليمة هذا اللبن ليس لهذه الشياه هذا اللبن ليس لهذا المكان ، إنما هو ببركة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تقول ، مرت علينا سنتان من الخير والبركة لم نرى مثلها، وبعد أن تم فصاله سنتان تقول إضطررت أن أرجعه إلى امه ، وإني لكارهة تقول ، فلما أرجعته إلى امه آمنة واوصلته إليها قالت ، قلت لامه إبقيه عندنا فإني أخاف عليه مرض مكة وأمراض مكة ، فلم ترضى امه فالححت عليها حتى قبلت تقول ، فارجعته أريد بركته ، وأحببته حليمة تقول ، فلما رجع عندنا وكان يلعب مع أخيه فجاة جاء رجلان يلبسان ثيابا بيضا ،

فخاف أخ محمد في الرضاعة فاسرع إلى امه حليمة ينايدها تقول فرجعنا ، فإذا بمحمد قد امسكه رجلان يلبسان ثيابا بيضا ليس برجلين ، إنهما ملكان تقول ، فامسكاه واطجعه على الارض وشقا صدره وأخرجا قلبه وغسلاه بماء في قسط ثم أرجعاه مكانه ، وإذا بصدره مرة أخرى يلتئم ، تقول حليمة فلما وصلنا إليه نظرنا إليه قد إنتقع لونه ، تغير وجهه تقول ، فضممته وارجعته الى الخباء واني عليه لخائفة.

لما رأت حليمة أم النبي بالرضاعة ماحصل لهذا الغلام محمد صلى الله عليه وآله وسلم من شق صدره خافت وخاف زوجها فقال ، لها زوجها أب النبي بالرضاعة قال ، قد علمت ما أصابه وربما يظهر عليه أمر يضره فارجعيه والحقيه بأهله ، فأسرعت حليمة بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمه آمنة فدخلت عليها فقالت آمنة ، ما الذي جاء بك قالت ، قد بلغ الله بابني وأدّيتُ الذي علي وخفت عليه الاحداث ، فجئتك به كما تحبين قالت امه ، قد كنت حريصة عليه ياحليمة قالت نعم ، قالت هناك امر آخر فأخبرني ، فلم تزل بها حتى أخبرتها حليمة بحادثة شق الصدر فقالت امه ماخافت ، قالت أم النبي لحليمة أخشيت عليه الشيطان،

خفت عليه من الشيطان قالت نعم ، والله خفت عليه ، فقالت آمنة بكل ثقة قالت ، ما للشيطان عليه من سبيل ما للشيطان عليه من سبيل ، إنه سيكون لابني هذا شأن عظيم ، ثم قالت لها هل تردين أن أخبرك بخبره قالت أخبرني ، قالت رأيت حين حملت به خرج نور أضاء لي قصور بُصرى بالشام ، ولم أسمع بحمل أسهل من حملي به ، سيكون لهذا الغلام شأن عظيم ، عاش نبينا في حظن امه وكنفها ورعايتها حتى بلغ ست سنين.

عاش النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كنف وحضن امه آمنة حتى إذا بلغ ست سنين ، أرادت امه أن تفرحه فذهبت به إلى أخواله « بني عدي بني النجار » في المدينة ، ىسافرت به من مكة إلى المدينة وعمره ست سنين ، ما أجمل هذا الغلام وما أحلاه ، حياته سعادة يذهب إلى أخواله فيرونه ما أجمل هذا النور الذي يخرج من هذا الوجه الصغير ، بعد أن فرح الغلام بأخواله رآهم ورأوه وفرحوا به ، أرادت امه أن ترجع به مرة أخرى إلى مكة ، خرجوا من المدينة وفي الطريق في منطقة إسمها « الأبواء » ، تعبت امه ومرضت وفي تلك اللحظات قبض الله عز وجل روحها ، والغلام صغير

لكنه يعقل لم ير أباه أبوه مات قبل ولادته ، أما امه فقد فجع بها وهو غلام لم يتجاوز السادسة من العمر ، امه تموت أمام عينيه امه تدفن « بالأبواء » يا الله من له في هذه الدنيا أبوه فارق الدنيا قبل أن يولد ، وأمه تفارق الدنيا وعمره ست سنين ، أي مصيبة ألمت بهذا الغلام الصغير أي كارثة حلت به ، فقد والديه وهو في هذا العمر ، يالله يالله كيف كان يشعر بأبيه وأمه وهو في هذا السن ، الرب عزّ وجل يرعاه والرب عز وجل يحفظه ، لكن الألم شديد والمصيبة كبرى ، دُفنت امه فياالله أي حزن خيم على ذلك القلب الصغير ، ثم أخذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وأرجع إلى مكة فاقدا لوالديه.

بعد وفاة امه عليه الصلاة والسلام تكفل به جده وعمره ست سنين ، جده عبد المطلب إبن هاشم سيد مكة يتكفل بمحمد صلى الله عليه وسلم ذو الست سنوات ، ويجعله مع أبنائه البقية أعمام النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت لعبد المطلب عادة كل يوم إذا بدأ الظل في الكعبة ، كان أبناؤه أعمام النبي كانوا يُفرشون له سجادة في ظل الكعبة ، لكن لايتجرأ أحد أن يجلس عليها حتى يأتي عبد المطلب ، فإذا جلس جلس أبنائه حوله إحتراما له ، إلا ما كان من محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهو صبي صغير كان يأتي قبل أعمامه ويجلس على السجادة قبل أن يجلس جده عليها عبد المطلب ، فكان أعمامه يحاولون منعه وإبعاده عن السجادة ،

لكن عبد المطلب ما كان يرضى وكان يقول لابنائه دعوه دعوه فإن لهذا الغلام شأن عظيم فإن لهذا الغلام شأن عظيم ، فكان يقرِّب محمدا وهو غلام صغير ست سنوات، يقربه إليه فيمسح رأسه ويمسح ظهره ، هكذا كان يحبه عبد المطلب ، لكن لم يظل النبي عنده إلا سنتين فلما بلغ الثمان سنين توفى الله عز وجل عبد المطلب ، أيضا فجع النبي بجده ، لم ير أباه وفجع بأمه والآن بجده عبد المطلب ، فتكفل به عمه أبو طالب ، عبد المطلب كان قد تولى كفالة ورعاية زمزم ، فلما توفي عبد المطلب تولى رعاية والإشراف على زمزم إبنه العباس ، وظل آل العباس إلى يومنا هذا ، هم الذين يشرفون على زمزم وشؤونها ، ظل نبينا عليه الصلاة والسلام في رعاية عمه أبي طالب إلى أن شب وكبر.

ظل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رعاية وعناية عمه أبي طالب ، وكان أبو طالب يحبه من بين أبنائه ورعاه رعاية كبيرة ، حتى أنه كان يعلمه ويدربه منذ الصغر على التجارة ، ولما قرر أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يذهب إلى تجارة إلى الشام ، أخذ محمدا صلى الله عليه وآله وسلم وكان عمره إثنا عشر عاما ، سارت القافلة إلى الشام ، ووصلت إلى منطقة تسمى « بُصرى » في الشام ، فلما وصلت تلك القافلة كان هناك ديرٌ لراهب ، وما كان يخرج من ديره كان يتفرّغ للعبادة ، لكنه لما رأى تلك القافلة خرج ، وذهب إلى تلك القافلة يترقبها وينظر إليها حتى وصل إلى محمد صلى الله عليه وسلم ،

كان غلاما إثنا عشر سنة ، فنظر بين كتفيه فوجد علامة ، فتأكد الراهب فسأل ، من الوصي على هذا الغلام فدُلّ على أبي طالب ، قال من أنت قال أنا أبوه ، فقال الراهب لا ما كان لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا ، قال إنه إبن أخي ، قال الان صدقت الان صدقت ، قال وما تقول ، قال ما من حجر ولا شجر مررتم عليها في طريقكم إلا خرّوا سُجّدا ، وما كانوا يسجدون إلا لمرور نبي ، ثم قال وقد رأيت علاماته ، هذا سيكون سيدا للعالمين هذا سيكون رحمة للعالمين ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وأكرمهم ذلك الراهب وضيفهم ، ما كان يفعلها لأي قافلة تمر ،

كيف كانت أوضاع مكة السياسية والاقتصادية والاجتماعية سنة مولده؟

لم بعد أن أكرمهم سأل أبي طالب أين ستذهبون به بهذا الغلام ، قال إلى تلك المناطق نبيع ونشتري تجارة ، فقال له الراهب لا تفعل لا تفعل فإني لا آمن عليه ، إن علم أحد بأمره سيكيدون له شرا، قال وماذا أصنع ، قال إني ناصح لكم أن ترجعوا بهذا الغلام إلا مكة ولا تذهبوا به إلى تلك الاماكن ، وأخذ أبو طالب بنصيحة هذا الراهب واسمه « بَحِيرَى » وأرجع محمدا صلى الله عليه وآله وسلم برفقة بعض الرجال أمنهم ثم رجعوا به إلى مكة آمنا سالما حتى لايُصاب بأذى ، هكذا بدأت علامة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، تظهر للناس وبدأت الامور تتكشف شيئا فشيئا فهو يكبر لكن لا كغيره من أقرانه.

لما بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشرين من العمر حصل في قريش معركة ، وسبب هذه المعركة أن قريش وكنانة وهي في طرف ، رجل منهم قتل بعض الرجال من قبيلة تسمى « قيس عيلان » فحصل بينهم معركة في عُكاظ ، وثارت المعركة ، وحصد كل من الفريقين قتلى من الآخر ، وكان النبي في العشرين من عمره وقد شارك في هذه المعركة ، وكان يُجهز النبل لأعمامه ، وثارت هذه المعركة حتى كثر القتلى من الطرفين والمصيبة أن المعركة حصلت في الاشهر الحرم ، ولهذا سميت هذه المعركة معركة « الفجار » فقد فجر الناس فيها وقاتلوا في الاشهر الحرم التي كانوا يحرمون فيها القتال ، حتى إذا قرب النهار على الانتهاء إتفق الطرفان على أن يُوقفوا القتال ، ويحسب القتلى من الطرفين ، فإذا كان قتلى أحد الفريقين أكثر أعطاهم الفريق الآخر دِيَة ليسددوا ثمن قتلاهم ،

بعد هذه المعركة حصلت أمر أيضا في مكة جاء رجل من « زبيد » ببضاعة إلى الحرم يبيعها فاشتراها منه رجل إسمه « العاص إبن وائل السهمي » فلما إشترى البضاعة لم يُعطيه الثمن ، حاول به فلم يُعطيه فذهب إلى الناس ، يريد من ينصره ومن يُعينه على أخذ ثمن هذه البضاعة ، فلم يُعطيه أحد أي قوة يستنصر بها على من ظلمه وهو العاص إبن وائل ، فذهب الرجل المظلوم الزبيدي إلى جبل « أبي قبيث » فعلاه وصرخ بأعلى صوته وقال شعرا يستنصر الناس فسمعه من الزبير إبن عبد المطلب ،

قال مالك ، فأخبره بالخبر ، فصرخ الزبير قال أيها الناس ما بالكم رجل يأتي إلى الحرم وتأخذون أمواله ويُظلم ولا ينصره أحد منكم ، فتداعا الاشراف ، أشراف القبائل بعد معركة الفجار وبعد ما حصل من ظلم هذا الرجل تداعا الإشراف من قريش أشراف القبائل من « بني هاشم بني عبد المطلب » وزهرة » وتَيْن » وغيرهم من الاشراف ، تداعوا إلى حلف سُمي حلف «الفضول» عُقد في بيت» عبد الله إبن جدعان » وهذا رجل شريف سيد من السادات ، وكان بين الحاضرين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، يحضر لأنه الصادق الأمين ، يحضر لأن الناس تحب كلامه ومنطقه ، يحضر لأنه أهل لأن يحضر مثل هذا الحلف ، وأي حلف تعاقدوا عليه ،

تعاقدوا على أنه لا يأتي إلى الحرم مظلوم سواء كان من أهل مكة أو من غير أهلها إلا وانتصرت له مكة قريش وقبائلها ، تنتصر للمظلوم ممن كان سواء كان من أهل قريش أو من غير أهل قريش ، وهكذا يقول النبي عن هذا الحلف الذي كان من أعظم الاحلاف في ذلك الزمان ، بل لم يكن أحد من العرب يفكر في حلف مثل هذا ، يقول لقد دعيت إلى حلف في دار عبد الله إبن جدعان ، ما أحب أن يكون له به حمر النعم ، لو أعطيت بدل حضور هذا الحلف أموال كثيرة جدا ما رضيت وما قبلت ،ثم قال عليه الصلاة والسلام لو دعيت إليه في الإسلام لقبلت ، أي أقبل حضور أي حلف ممن كان إذا كان لنصرة المظلوم ،هكذا كان عليه الصلاةُ والسلام يهتم بالمظلوم ولا يبالي بمن يدعو لنصرة المظلوم سواء كان مسلما أو غير مسلم ، المهم أن ينصر المظلوم ،فانتشر بين القبائل وانتشر بين العرب أن هذا الحرم حرم وأن أهل مكة سيقومون مع المظلوم وينصرونه مهما كان ، سواء كان منهم أو كان من غيرهم ، وهكذا إرتفعت مكانة قريش وقبائلها ، وارتفعت مكانة سادتها وأشرافها بين القبائل ، أي أنها تنصر المظلوم ، عاش النبي صلى الله عليه وآله وسلم عاش يتيما في بدايته فآواه الرب عز وجل، كان لا يملك شيئا من المال وكان يرعى الغنم وما من نبي إلا رعا الغنم ، كان يرعى الغنم ويُعطى قراريص يأكل منها عليه الصلاة والسلام ، لما كبر شيئا ما ، بدأ يعمل بالتجارة وحصل على بعض الأموال يعمل فيها ، فأغناه الرب عزّ وجل ، حققه الرب في صغره ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلًا ﴾ فقيرا ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ حققه الرب عزّ وجل في صغره كان يتيما فآواه الرب وحفظه ، وكان عائلا فقيرا فأغناه ربنا جل وعلا.

أصحاب الفيل

استبد أبرهة الحبشي ، بإمارة اليمن ونصب نفسه أميرا عليها ، بعد أن عصى أوامر ملكه النجاشي ، ملك الحبشة الذي كان يدين بالنصرانية ، وأراد أبرهة أن يرضي النجاشي ليصفح عنه زلته ، فبنى كنيسة فائقة الحسن والجال ، لم ير مثلها في يومها ، وكتب أبرهة إلى النجاشي يعلمه: انى بنيت لك كنيسة ، ولن تهدأ نفسي ، ويستقر حالي ، حتى أصرف أنظار العرب عن الحج إلى البيت العتيق ، إلى الحج لكنيسة "القليس" ﴿1﴾ ولما علم العرب بنوايا أبرهة غضبوا ، فدفعت الحمية رجلا من كنانة ، فخرج حتى اتى الكنيسة وأحدث ﴿2﴾ فيها ، ثم أخبر أبرهة بما فعل العربي فغضب غضبا شديدا وقال: والله لأسيرن إلى البيت العتيق حتى اهدمه ثم امر قواده وجنوده أن يتهيؤوا ، استعدادا لهدم البيت العتيق ، وسار أبرهة في مقدمة الجيش الكبير الذي يتقدمه فيل ضخم ، ولما سمعت العرب بذلك ورأت هذا الجيش الجرار الذي يتقدمه فيل ، هابوا ﴿3﴾ لقاءه ، وفزعوا من مرأى الفيل ، إلا انهم رأوا أن جهاده حق عليهم ، عندما سمعوا بأن أبرهة يريد هدم كعبتهم ، بيت الله الحرام ، لكن محاولات العرب في صد أبرهة ، باءت بالفشل ، إذ انتصر عليهم ، وبات الطريق أمامه مفتوحا إلى مكة المكرمة ، وما إن وصل إلى مشارفها ، حتى بعث من أتى له بأموال وبعير

أهل قريش ، وكان منها مئتا بعير لعبد المطلب بن هاشم ، جد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان إذ ذاك سيد قريش وزعيمها وبعث أبرهة رسولا إلى عبد المطلب ، ليخبره أنه لم يأت لحرب قريش ، إنما جاء لهدم الكعبة فإن أراد عبد المطلب الحرب ، فالويل له ، وإن لم يرد ذلك فليأت إليه وأعلم عبد المطلب هذا الرسول ، أن قريشا لا تريد الحرب ، وأنها لا طاقة لها على القتال ، فهذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فللبيت رب يحميه وانطلق عبد المطلب إلى أبرهة حيث استقبله استقبالا حافلا وأجلسه إلى جانبه ثم سأله أن يطلب ما يشاء . فقال عبد المطلب حاجتي أيها الملك ، أن ترد علي البعير التي أخذتها . فقال أبرهة متعجبا: والله إنك قد أعجبتني حين رأيتك ، فلما كلمتني بشأن البعير ، انتقصت من قدرك ، أتكلمني بمئتي بعير ، وتترك البيت الذي هو دين آبائك وأجدادك ؟ فقال عبد المطلب: إني أنا رب الإبل ، أما البيت فله رب سيمنعك عنه ، ثم عاد عبد المطلب إلى قومه ، وأمرهم بالخروج إلى شعاب ﴿4﴾ مكة وجبالها وفي الصباح توجه أبرهة إلى مكة ، يريد هدم البيت ، لكن الفيل الذي كان يتقدم الجيش ، أحجم عن التقدم رغم ضربه ونهره ، فإن وجهوه نحو اليمن هرول، وإن وجهوه نحو الكعبة أحجم وتراجع ، عندئذ لقي أبرهة وجيشه جزاءه العادل ، عندما أرسل الله عز وجل طيورا ، تحمل في أرجلها حجارة صغيرة ، لا تصيب أحدا منهم إلا هلك فولى الجيش هاربا ، لا يلوى على شيء ، أما أبرهة فقد أصيب بالحجارة ، وما إن وصل إلى اليمن حتى فارق الحياة ، وقد ذكر الله عز وجل هذه الحادثة في القرآن الكريم إذ قال

الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل الم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ×ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول 6

القليس: هي الكنيسة التي بناها أبرهة وأراد أن يصرف أنظار العرب إليها ، وسميت كذلك لارتفاعها وعلو بنائها.

« يجتبي من رسله من يشاء »

قد أنعم الله سبحانه وتعالى على أنبيائه ورسله بنعم عظيمة جليلة ، أولاها فضلا ، وأوفاها منة ، وأعلاها قدرا نعمة النبوة ، حيث اصطفاهم لقربه ، واجتباهم لرحمته .

يقول الله تعالى : « وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ » آل عمران/179 ويقول سبحانه : « وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » الأنعام/87

وقد خص الله سبحانه وتعالى نبيه وخليله محمدا صلى الله عليه وسلم بمزيد فضل ، وحباه بعظيم قدر ، حتى قال سبحانه وتعالى : « وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » النساء/113

ومن هذا الفضل أنه سبحانه شرح صدر الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم ، وامتن عليه بهذه النعمة العظيمة في سورة من القرآن الكريم تتلى إلى يوم القيامة ، تسمى سورة " الشرح " .

يقول سبحانه وتعالى : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » الشرح/1

وشرح صدر النبي صلى الله عليه وسلم يتضمن معاني كثيرة عظيمة:

1 – شرح الله صدره للإسلام دينا وشريعة ، وهذا أعظم ما يمكن أن ينشرح له الصدر ، وهو تفسير ابن عباس ، علقه البخاري في صحيحه « كتاب التفسير / باب سورة الشرح ، ص 982»

2 – وشرح الله صدر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأن ملأه حكمة وعلما وإيمانا ، كما فسره الحسن البصري ، ويذكر العلماء في تفسير ذلك حادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم ، والتي تكررت مرتين في حياته صلى الله عليه وسلم :

الأولى : كانت وهو صغير في بني سعد ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً ، فَقَالَ : هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ، ثُمَّ لَأَمَهُ ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ » رواه مسلم «162».

الثانية : كانت ليلة الإسراء .

كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ فَنَزَلَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفَرَجَ صَدْرِي ثُمَّ غَسَلَهُ مِنْ مَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ » رواه البخاري «349» ومسلم «163».

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى " فتح الباري " «7/204» :

" وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء ، وقال إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد ، ولا إنكار في ذلك ، فقد تواردت الروايات به ... وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته ، لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك ، قال القرطبي في " المفهم " : لا يلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء : لأن رواته ثقات مشاهير " انتهى .

وقد جاءت حادثة شق الصدر أيضا في بعض الروايات في أوقات أخرى ، في عمر العشر سنوات ، وعند البعثة ، لكنها روايات ضعيفة . انظر " السيرة النبوية الصحيحة " «1/103». يقول ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " «4/677» : " يقول تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » يعني : أما شرحنا لك صدرك ، أي : نورناه وجعلناه فسيحا رحيبا واسعا ، كقوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » .

وقيل : المراد بقوله : « ألم نشرح لك صدرك » ، شرح صدره ليلة الإسراء ، ولكن لا منافاة ، فإنه من جملة شرح صدره الذي فعل بصدره ليلة الإسراء وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضا فالله أعلم " انتهى .

-3 وجاء في " روح المعاني " «30/166» : " وقيل : المعنى : ألم نزل همك وغمك بإطلاعك على حقائق الأمور وحقارة الدنيا ، فهان عليك احتمال المكاره في الدعاء إلى الله تعالى . ونقل عن الجمهور أن المعنى : ألم نفسحه بالحكمة ونوسعه بتيسيرنا لك تلقي ما يوحى إليك بعد ما كان يشق عليك " انتهى .

4 – وقال ابن عاشور في " التحرير والتنوير " «1/4850» :

" وشرح صدره كناية عن الإنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات ، وإعلامه برضى الله عنه ، وبشارته بما سيحصل للدين الذي جاء به من النصر " انتهى .

وانظر " سبل الهدى والرشاد " «2/59» .

5 – ويقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في " تفسير سورة الشرح " «ص/1» :

" وهذا الشرح شرح معنوي ليس شرحاً حسياً ، وشرح الصدر أن يكون متسعا لحكم الله عز وجل بنوعيه ، حكم الله الشرعي وهو الدين ، وحكم الله القدري وهو المصائب التي تحدث على الإنسان ".